

الحياة العلمية والثقافية للإباضيين (من القرن الثالث هجري إلى منتصف القرن السابع هجري)، (200هـ-634هـ)

Scientific and cultural life of the Ibadi after the fall of the Rustamid state.

مختبر الجنوب الجزائري للتاريخ والحضارة الاسلامية / كلية العلوم الإنسانية / غرداية/الجزائر	التاريخ الوسيط	صديق بن حليمة [*] Seddik Benhalima seddik.benhalima@univ-ghardaia.dz
مختبر الجنوب الجزائري للتاريخ والحضارة الاسلامية / كلية العلوم الإنسانية / غرداية/الجزائر	التاريخ الوسيط	أ.د. إبراهيم بحاز بكير Ibrahim Bahaz Bakir bahazhistory@yahoo.com
DOI : 10.46315/1714-010-002-038		

الإرسال: 2020/04/13 القبول: 2020/11/10 النشر: 2021/03/16

ملخص :

أفضى اهتمام الدولة الرستمية للعلم إلى بروز العديد من العلماء، كما أن مساهمة الأئمة في ذلك انعكس إيجابا على الحياة الثقافية والعلمية، فتزاحمت الملل والنحل وكثرت حلق العلم واتسعت حركة المناظرات والجدل، وبأقول نجم الرستميين اتجهوا نحو الصحراء، فأسسوا نظام العزابة الذي من خلاله حافظوا على مذهبهم وثقافتهم من الزوال والإندثار، فعاش الإباضيون حركة ثقافية وعلمية مزدهرة، فمثلت لهم حلق العزابة مؤسسات تعليمية جديدة يتدارسون فيها أصول مذهبهم والنظر في حياتهم الاجتماعية والعلمية، فكانت العزابة القانون الجديد الذي حوّل المجتمع الإباضي، فانتعشت الحركة العلمية والثقافية من جديد وبقيت ثقافة المجتمع الإباضي موجودة إلى يومنا هذا بمساهمة تلك الحلق.

الكلمات المفتاحية: الحياة الثقافية، الإباضيون، الحياة العلمية.

Abstract:

The Rustamid state's interest in science led to the emergence of many scholars, and the imams' contribution to this reflected positively on the cultural and scientific life. Their doctrine and culture have disappeared and disappeared, so the Ibadis lived a thriving cultural and scientific movement, and new educational institutions were represented for them in which they studied the origins of their doctrine and consider their social and scientific lives. To this day with the contribution of that ring.

Key words: cultural life, Ibadis, scientific life.

مقدمة :

شكل التعليم للدولة الرستمية ركنا هاما من أركان قيامها وأساسا ضروريا لها، وتأكد أئمتها أنّ نشأة دولتهم واستمرارها لا يكون إلا بالعلم والتعليم، فلذلك نجد أنّ اهتمامهم بالعلم كان سابقا لقيام دولتهم وأنّ دعائهم الأوائل والذين دعوا إلى المذهب الإباضي كانوا من أئمة المسلمين ومن التابعين الأوائل الذين شهد لهم بالعلم والتفقه في الدين فقد أخذوا منه بحظ وافر، وبرع أئمة

* - الباحث المرسل: seddik.benhalima@univ-ghardaia.dz

هذه الدولة في شتى فنون العلم ونبغوا فيه وبخاصة فيما تعلق بمذهبهم، حيث أن الحياة الفكرية في عصر بني رستم ارتبطت ارتباطا كبيرا بالمذهب الإباضي (الحريري، 1987، صفحة 235) (ومن أمثلة هؤلاء الذين نالوا قسطا من العلم وكان لهم الفضل في تثبيت المذهب الإباضي، أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (الشماسي، 1987، صفحة 68)، (الدرجيني، صفحة 07، 205)، (أبي عمار، صفحة 25)، (أبي زكريا، 1979، صفحة 3، 4، 5)، (خليفات، 1993، صفحة 15، 16) وعبد الله بن أباض (أبي عمار، 1979، صفحة 25)، (الدرجيني، صفحة 7، 214)، (الشماسي، 1987، صفحة 67)، (خليفات، 1993، صفحة 12، 13) وأبو بلال وعروة ابنا أديا (الدرجيني، صفحة 07، 214، 215)، (أبي زكريا، 1979، صفحة 5، 6)، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة (الدرجيني، صفحة 7)، (الشماسي، 1987، صفحة 78) (أبي زكريا، 1979، صفحة 5، 6) ويعود الفضل كله لأبي عبيدة هذا في بث دعاة إلى المغرب الإسلامي لنشر المذهب الإباضي ببلاد المغرب الإسلامي حين شعر بعدم جدوى بقائه قرب مركز الخلافة في المشرق للملاحقة الخلفاء الأمويين له، ولغيرهم من أصحاب المذاهب والأفكار الأخرى وعلى كل الخارجين عنهم.

وأبرز ما قام به الرستميون بعد قدومهم لبلاد المغرب، وهو بدوره يوضح على مدى اهتمام واحتلال العلم بينهم مكانة عليا، وهو بعث طلبة العلم إلى المشرق لينهلوه من مصادره الأولى، وهو ما يعرف ببعثة حملة العلم وهم: عبد الرحمن بن رستم وعاصم السدراتي وإسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي النفاوي، وقدم معهم من المشرق أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، وهذا ما يدل ويؤكد أن الرستميين قد عنوا بالعلم وألوه عناية بالغة، وذلك من قبيل قيام دولتهم، وحتى في عز ازدهار دولتهم لم يتخلوا عن طلب العلم وتدريبه ضمن حلقات تقام في المساجد والأحياء، وخير دليل هو أن البيت الرستمي وأئمتهم كانوا أنفسهم فقهاء ومفسرين ومؤلفين، وبعد زوال سلطانهم من بلاد المغرب الأوسط لم يترك أو يتخلى من بقي وفر من الرستميين عن الاهتمام بالعلم والتعليم فأبقوا على حلق التدريس ضمن مرحلة الكتمان التي دخلوها وبخاصة بعد إنهيار السطلة السياسية الحامية لمذهبهم، وقد أجبرتهم الظروف على تحويل هذه الحلق العلمية من وظيفتها الأولى إلى وظيفة أخرى، وهي التي ستساهم بشكل كبير في المحافظة على المذهب الإباضي وثقافة المجتمع الإباضي، كما أصبحت هذه الحلق تعالج مشاكل اجتماعية، مبقية على غايتها الأولى وهي التعليم والتدريس ونشر المذهب الإباضي أو على الأقل المحافظة عليه من التيارات الخارجية، وقد ركزنا في هذا المقال عن الحياة الثقافية للإباضيين بعد سقوط دولتهم بتاهرت إلى غاية سقوط مدينتي وارجلان وسدراتة وهي فترة تضاهي ثلاثة قرون من الزمن.

المؤسسات التعليمية والثقافية في الدولة الرستمية: (بحاز، 1993، صفحة 266، 277، 279، 288).

خلق التعليم والمساجد:

يعتبر المسجد من أهم المؤسسات التعليمية التي عنيت باهتمام كبير من طرف الرستميين وذلك لدوره الفعال في ترسيخ العلوم باختلافها، ويعتبر المسجد محطة ينال فيها الطلبة العلوم خاصة منها علوم الدين، وقد كان للمسجد مكانة مميزة لكل الدول التي قامت بالمغرب الإسلامي، وقد سبق الولوج إلى المسجد ونيل لعلوم منه، التحاق الصبية بالكتاتيب والتي كانت تشبه إلى حد كبير التعليم الابتدائي والذي كان مخصصا للصبية حيث يتلقون فيه مبادئ اللغة والآداب العامة وتحفظ القرآن، ويبدو أن التلميذ في الكتاب كان يكتب دروسه على لوح من خشب ربما لندرة الورق في ذلك الحين (بحاز، 1993، صفحة 277)، أما المساجد فقد اهتم بها الرستميون كغيرهم وجعلوا منها المنبر الأول لتلقي مختلف العلوم، حيث أن أول ما شرع به عبد الرحمن بن رستم، حيث بدأ ببناء المسجد الجامع عندما شرع في بناء مدينة تأويه وتأوي الإباضية الذين تقاطروا عليه (بحاز، 1993، صفحة 275).

لقد كان التعليم يتم في هذه المساجد عن طريق رفع المستوى من مرحلة الكتاب بتعلم مبادئ اللغة والاكتفاء بها إلى تعلم علوم الدين والتخصص فيها وكلما ازداد الصبية في السن كلما تطورت معهم العلوم وتعمقوا في النيل من علوم شتى كعلم الكلام والتفسير والفقه وفق المذهب الإباضي، وتعلم أسلوب المناظرة وكان يتم ذلك في خلق تكون داخل المسجد يشرف عليها شيوخ، وقد ذكر محمد علي دبوز في هذا الصدد وكان المعلمون في تلك المدارس مثال التقوى والورع، والإخلاص والصفاء والاستقامة في السلوك، والعلم وحبه وقوة الشخصية التي تؤثر في التلميذ. (دبوز، صفحة 329) وأورد أيضا "وكانت الدولة الرستمية دولة العلم والمعرفة، تحب العلم وتجله، وتغرم به وتؤثره وتفتح له المدارس، وتنشره في كل الطبقات وبكل الوسائل والأسباب". (دبوز، صفحة 329)، ولا شك أن المسجد الجامع بتهمرت كان أهم مركز لتعليم وتلقين الفقه الإباضي، وفيه كان الأئمة يعقدون حلقاتهم الدراسية (بحاز، 1993، صفحة 282)، وقد تصدى لتعليم هؤلاء الطلبة العديد من علماء الرستميين، أبرزهم حملة العلم الخمسة الذين نهلوا العلم من مصادره الأولى في المشرق، بالإضافة إلى أئمتهم أمثال عبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب، وقد جرت العادة في بناء المدن الإسلامية، ثم تقام بجانبه دار الإمارة والسوق، ويبدو أن الرستميين قد خرجوا عن هذه القاعدة فقد بنوا المسجد الجامع أولا حقا (جودت، 1984، صفحة 33).

وذكر البكري أيضا أنّ أول ما قام به عبد الرحمن بن رستم عند حلوله بالمغرب الأوسط فارا من العباسيين بعد استيلائهم على القيروان واختيار تاهرت موضعا لعاصمة دولتهم " فبنوا في ذلك الموضع مسجدا وقطعوا خشبة من تلك الشعراء فهو كذلك إلى اليوم وهو مسجد جامعها وهو من أربع بلاطات (البكري، صفحة 68)، (أبي زكريا، 1979، صفحة 82) (الشماسي، 1987، صفحة 125) وبذلك نجد أن الدولة الرستمية وأنتمها أدركوا أن سرّ بقاء الدول وتطورها هو الاعتناء بالعلم وذلك من خلال الاهتمام بالمساجد فقد أضحي لكل حي أو ضاحية مسجد خاص بهم يتولى تعليم وتدريب الطلبة فانتشرت مختلف العلوم النقلية والعقلية وحوث تاهرت على ثقافات شتى، وأصبحت تدعى عراق المغرب لما كانت تضاهي وتنافس به العراق في تلقين العلوم وتحصيلها، وكانت مساجد تهرت تشمل على حلق العلوم المختلفة، فيجد الطلبة فيها كل ما يريدون لتخصص فيه من العلوم، وكانت فيها العلوم الشرعية: التفسير والحديث والفقه، وأصول الفقه، والعلوم العربية كلّها: الأدب والنحو والصرف وغيرها، وكان فيها المنطق والعلوم الرياضية: الحساب والهندسة وعلم الفلك، وأرى أن في تلك العلوم علم الطب (دبوز، صفحة 331)، حتى أضحي للدولة الرستمية مكتبة اشتهرت بها وهي مكتبة المعصومة، وهذا ما لم نجده في أغلب دول المغرب الإسلامي، وهو دليل على نبوغ هذه الدولة في مجال العلم، حتى أنّ أغلب المؤرخين يرجحون أن سبب سقوطها يعود إلى الالتفاف الكبير والعناية الفائقة بالجانب العلمي والفكري على حساب الجانب العسكري .

تعتبر حلق العلم من أنجع الطرق التي اعتمدت في تلقين تدريس الطلبة، خاصة في المساجد وذلك منذ بدء الدولة الإسلامية وحتى في بعض المناطق في يومنا هذا، وكانت الدراسة تتم في مجالس تعرف بحلقات العلم، يقصدها الناس عامتهم، إضافة إلى الطلاب الذين يخصصون جل أوقاتهم لطلب العلم وحضور حلقاته (بحاز، 1993، صفحة 281)، واعتمد الرستميون على ذلك فجلس أنتمهم وعلماءهم في المساجد للتصدي لهذه المهمة، وعلى رأس هؤلاء جلس أئمة الدولة الرستمية حيث يورد محمد علي دبوز في هذا الصدد "وكان الأئمة الرستميون كلهم من العلماء الفحول، إذ أن من شروط الإمامة ورئاسة الدولة العلم، فالدولة الرستمية لا تقبل لرئاستها إلا العلماء العاملين وكان الإمام عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء في عصره، وكان يقضي أوقات فراغه (دبوز، صفحة 332) وهو رئيس الدولة في الدرس والتدريس والتأليف وكانت له حلقة في مسجد تهرت يتولى التدريس فيها بنفسه في أوقات فراغه، وقد تولى شؤون هذه الحلقات على غرار عبد الرحمن بن رستم، ابنه عبد الوهاب، وفيما يروى عن الإمام عبد الوهاب أنّه أرسل إلى إخوانه في

المشرق ألف دينار ليشتروا له بها كتباً، وقد بلغت هذه الكتب حوالي أربعين حمل جمل، فقرأها كلها، وقال لم تستعصي عليّ إلاّ مسألتيان أو ثلاث، ولو سألت فيهما لأجبت عنهما قياساً (دبوز، صفحة 332)، (أبي زكريا، 1979، صفحة 99، 100) هذا ما تميّز به أئمة الرستميّين من علم وورع وتقوى وكذلك علمائهم أبرزهم حملة العلم الخمسة بما فيهم عبد الرحمن بن رستم، واعتبرت هذه الحلقات النواة الأولى لتلقي العلوم، وكانت تهرت رائدة في ذلك لكثرة حلق العلم بها، والتي انبثق عنها أسلوب المناظرة بين مختلف الفئات والمذاهب التي كان يزخر بها المجتمع الإباضي، ولعل الحلقات التي كانت تعقد في مساجد العاصمة تهرت وهي متنوعة تنوع المذاهب فيها، تعتبر أهم دور التعليم في الدولة الرستميّة (بحاز، 1993، صفحة 282).

العلوم تأثيرها على الحياة الثقافية:

من أبرز العلوم التي تداولتها حلق العلم والتدريس كما وأشرنا العلوم الشرعية بكل فروعها، والعلوم العقلية، ولكن ما اشتهرت به هذه الحلق أكثر هو تعلم أسلوب المناظرة والجدل الذي ذاع صيته بالدولة الرستميّة، لا سيما وأنها عرفت بالتسامح الديني والتعايش المذهبي، وفتحت أحضانها لكل المذاهب والنحل والفرق الكلامية، حتى أصبح كل حي يسمى بساكنيه أو الوافدين إليه، حيث يورد ابن الصغير المالكي في هذا الصدد: حتى لا ترى داراً الا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين (ابن الصغير، صفحة 32) لذلك وجب تعلم فن الرد والمناظرة لمواجهة الآخرين من أصحاب الآراء المختلفة، وهكذا فمن المحتمل أن يكون الاهتمام بالجدل، وإثبات الحجة أمام الخصم أمراً ضرورياً، مما دفع علماء المغربين الأوسط والأدنى، إلى استيعاب العديد من فنون العلم وعدم الاكتفاء بالقليل، فهذا التنافس من شأنه أن يرفع مستوى التعليم (بحاز، 1993، صفحة 295)، وبهذا الأسلوب ارتفع مستوى العلوم، حتى أنه لم يوجد علم ظهر بالمشرق إلا وضرب علماء الدولة الرستميّة بسهم منه، مثال ذلك في التفسير: هود بن محكم الهواري، وفي الحديث مسند الربيع بن حبيب، وفي الشعر بكر بن حماد التاهرتي (شاوش، 1966، صفحة 61)، (الدرجيني، صفحة 43) بالإضافة إلى الأئمة الأوائل للدولة الرستميّة حيث كانت لهم تأليف خاصة بهم، وجلّها كانت في العلوم الدينية.

إن كل هذه التأليف والمصنفات قد أغنت مكتبات وتراث المغرب الإسلامي بما فيها مكتبة المعصومة، وتركزت لنا تراثاً زاخراً وشاهداً على مدى اهتمام الرستميين بالعلم وبمؤسساته المتمثلة في الكتاتيب والمدارس والمساجد وحلقات العلم والتدريس، حيث قام الإباضيون بجهود كبيرة في

سبيل اثراء المكتبة الاسلامية بالمؤلفات الكثيرة المتنوعة التي تناولت مختلف جوانب الفكر الإسلامي (خليفات، 1993، صفحة 57).

خلق العلم ودورها في ترسيخ العلوم في المجتمع الإباضي:

إن الجانب العسكري للدولة الرستمية لم يعنى به عناية تليق بها كدولة مما أدى إلى ضعفها وسهولة تقويضها، كما أن بروز الكيان الفاطمي على الساحة السياسية بالمغرب الإسلامي أصبح سقوط الدولة الرستمية قدرا محتوما، إضافة إلى الفوضى والاضطراب الذين دبا في جسدها خلال حكم الأئمة المتأخرين، ودخول البيت الرستمي في صراع على دواليب الحكم، وتفشي المذهب الشيعي في أوساط القبائل البربرية، وحتى بين جنابات الدولة الرستمية فأضحى زوال الدولة أمرا واضحا، كما أن تعجيل انهيار الدولة هو اهتمامها بالجانب العلمي والحضاري دون سواه عن الجوانب الأخرى وبخاصة الجانب الحربي الذي يعد في تلك الحقبة الزمنية العمود الفقري لكل الدول آنذاك، كما لا نستغرب إذا ما قلنا: إن الحركة الفكرية والاعتقادية وترك جميع الفرق حرة، بحيث لم يضايقوها ولا طردوها عجلت بسقوط الدولة الرستمية (أعوش، 1988، صفحة 56) وهذا ما لخصه محمد علي دبوز حين أورد في أسباب سقوط الدولة الرستمية (296هـ-909م) "إن أسباب انقراض الدولة الرستمية أربعة: الشيخوخة بطول الجد والكد والزمان، والانغماس في الحضارة والنعيم، والطاбор الخامس الذي كان يهدمها من الداخل، والعدو الخارجي القوي الذي هاجمها" (دبوز، صفحة 539) وبتقدم جيوش عبيد الله المهدي وسيطرته على المغرب الأدنى صار من السهل الاستيلاء على المغرب الأوسط الذي كان تحت سيطرة الرستميين، لكن الرستميين لم يستطيعوا المقاومة ودخل العبيديون تاهرت سنة 296هـ وبذلك انتهى الوجود الرستمي بالمغرب الأوسط وبقي من بقي منهم ملتزما التقية، وفرّ أغلبهم إلى الصحراء ناجين بأنفسهم وبمذهبهم، واستقروا بورجلان وسدراتة ويذكر مسعود مزهودي في هذا الصدد "عندما استطاع عبيد الله الشيعي دخول تاهرت خرج يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب مع أهله وجمع غفير من التاهرتيين متجهين إلى وارجلان وسدراتة خوفا من بطش الشيعي (مزهودي، 1996، صفحة 39)، وهناك بدأوا من جديد محاولة بث مذهبهم من جديد وذلك عن طريق الإبقاء على خلق التدريس والتعليم التي عهدوها في فترة قوة دولتهم وإظهار أئمتهم لإمامة الظهور.

يعد سقوط الدولة الرستمية وانهارها سببا رئيسيا في العودة إلى نظام الحلق والتدريس للمحافظة على المذهب الإباضي وتمسك المجتمع الإباضي به خوفا من اندثاره وزواله وبخاصة بظهور المذهب الشيعي الإسماعيلي المتطرف الذي أزاح عن طريقه كل الفرق الكلامية والمذاهب

العقدية الأخرى بما فيها المذهب الإباضي، وبعد أن يأس الإباضية من إعادة أمجاد دولتهم ركنوا إلى الإستكانة والدخول في طور الكتمان حفاظا على ما بقي منهم، والأهم ما قام به الإباضية الفارون نحو الصحراء هو المحافظة على حلق العلم والتدريس، وبدأوا في هذه الحلق يتذكرون ويلتقون متدارسين أصول مذهبهم وعلوم الدين والشريعة الإسلامية، وقد كان فضل كبير لهذه الحلق حيث حافظت على المذهب الإباضي وتقاليد وعادات المجتمع الإباضي، وأصبحت هذه الحلق تعالج مواضيع اجتماعية وحالات تخص المجتمع وطريقة عيشه وعاداته وبعض التقاليد والأعراف، وأصبحت بمثابة المجلس الأعلى للشورى داخل المجتمع الإباضي وساعدت على بقاء هذا المذهب هو تعاليمه السمحة وقربه الكبير من مذاهب أهل السنة فلم يجد أهل المغرب حرجا في التعايش مع أصحاب هذا المذهب، كما ساعدت جغرافية الصحراء على ذلك لبعدها عن الشمال الذي مثل منطقة صراع دائم بين الدول التي كانت تنشأ وتسقط في تلك المنطقة، بالإضافة إلى هذه الظروف الغير مباشرة لظهور نظام العزابة، كلن هناك ظروف مباشرة لبروزها، أهمها غياب القانون العام الذي تحكم التجمعات ذات الطابع الديني الواحد والتي تعود إليه هذه المجتمعات في حالات الخصومات والأحوال العامة والشخصية لها، وهذا القانون كان موجودا بوجود السلطة الفعلية والمسيطرة والتي تمثلت في السلطة السياسية للدولة الرسمية المتمثلة في الإمام وحاشيته وهيكله الحكم من قضاة ومحتسبين وغيرهم، وبغيب هؤلاء وزوال نفوذ الرستميين آل الأمر تلقائيا واضطراريا إلى شيوخ حلقة العزابة للنظر في هذه الأمور لاستمرار سير وديمومة الدعوة والحفاظ على المذهب والمجتمع الإباضي وعاداته وتقاليد وثقافته ورغبة في ظل هذه الظروف وتحت ما يعرف بالدعوة السرية والكتمان.

حلقة العزابة: (البرادي، صفحة 226)، (حماد، 2013، صفحة 50)

وربما يجد القارئ الكريم أن التركيز كله كان منصبا على نظام العزابة ودورها في التمكين للمذهب الاباضي، لأن مرد ذلك يكمن في أهمية هذا النظام وما كان له من دور مهم في تثبيت وترسيخ مبادئ المذهب الاباضي، والذي بدوره يمثل الواقع العلمي والفكري والهوية الثقافية للإباضيين.

كل الظروف السابقة كانت كافية إلى حد بعيد لظهور وتحول حلق العلم والتدريس إلى نظام اجتماعي يمثل القانون الذي يحكم ويصدر القوانين للمجتمع الإباضي للحفاظ عليه من اندثار مبادئ المذهب الإباضي والمحافظة عليه بأي شكل من الأشكال ولذلك كان ظهور نظام العزابة ضرورة اقتضتها الظروف التي مرّ بها الإباضيون بعد زوال دولتهم وزوال سلطة فعلية ترعى وتسهر

على حماية المذهب الإباضي، كما أن العزابة كانت اللبنة الأساسية لازدهار الحياة الثقافية والعلمية للإباضيين.

كما يطلق على هذا النظام اسم " الحلقة" ويعني مجلس العزابة، لأنّ العزابة عندما يجتمعون يجلسون على هيئة حلقة أو دائرة ويعني في نفس الوقت " حلقة العلم (مزهودي، 1996، صفحة 196)، وأصل كلمة العزابة كما هو وارد في سير أبو عمار عبد الكافي حين سأله تلامذته عن ما معنى العزابة؟ فأجاب: أصل العزابة اشتقاقها من العزبة والعزلة والغربة والتصوف والتهجد على رؤوس الجبال فذلك العزابة (أبي عمار، 1979، صفحة 12، 13)، ويطلق على الفرد الواحد الذي ينتهي إلى مجلس العزابة اسم " عزابي "وتعني كل من لازم الطريق وطلب العلم، وعزب علن الحياة الدنيوية أي بعد عنها، وكان أول استعمال لهذه التسمية في عصر الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر(440-345هـ) (956-1048م) (مزهودي، 1996، صفحة 205)، ويعود كل الفضل في تأسيس نظام حلقة العزابة له، فهو أول من ألهم سلوك الطريقة، التي حفظ بها الله هذا المذهب، فرسم المهمل وقيد الشارد، فامتاز طريق الصلاح من طرق الفساد (أبي عمار، 1979، صفحة 167)، حيث مكن له ووضع له قواعد وأسس تتماشى والطبيعة التي أنشأت من أجلها هذه الحلق وهي إعادة إحياء حلق العلم والتدريس والمحافظة على المذهب الإباضي، وإيجاد قوانين لها صبغتها الشرعية لإبقاء المذهب الإباضي على مبادئه الأولى، والمجتمع الإباضي مترابطة بعيد عن التفكك الذي بدأ يظهر فيه، كما يعد نظام العزابة أحد أنظمة الحكم لدى الإباضيين، بعد كل من مراحل الحكم كمرحلة الظهور والدفاع والشرء والكتمان (مزهودي، 1996، صفحة 200)، ويعتبر نظام العزابة نظاما جديدا وحديثا على هذه الأنظمة، إذ لم يكن موجودا ولا معمولا به وفق المبادئ الأولى للمذهب الإباضي وإنما كان عبارة عن حلق للتعليم والتدريس لا غير، وليس له صلة مباشرة بالحكم ولا بالمجتمع الإباضي غير مهامه المتمثلة في نشر العلم، ونظرا لما تعرض له المذهب الإباضي من محن لجأ إليه الإباضية الذين فروا إلى الصحراء، ويمكن ادماجه هذا النظام وفق مرحلة الكتمان التي هي آخر ما يمكن للإباضية التمسك بها كنظام حكم.

نظام العزابة:

يبدو أن طول بقاء نظام العزابة والمحافظة عليه منذ تأسيسه على يد أبي عبد الله محمد بن بكر منذ القرن الرابع الهجري وإلى يومنا هذا يعود على قوانين محكمة وأسس سليمة وهيكلية منظمة بإحكام مكنته من المكوث زمنا يربو عن العشر قرون، والفضل يعود كلّ كما وسبقت الإشارة إليه إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الذي تطرق الكثير إلى عرض ترجمته(أبي زكريا، 1979،

صفحة 263)، (الدرجيني، صفحة 190) حيث يتفق الجميع على أنه كان من الحفاظ الأجلاء مشهورا بالورع والتقوى والبلوغ في العلم والدين ومن المواظبين على حلق العلم والتدريس، وقد أسس لنظام الحلقة وأنشأ له الأسس والقواعد الأولى له لتتحول تدريجيا إلى نظام اجتماعي ديني يضبط سبل السير الحسن للمجتمع الإباضي وقد طرأت على هذا النظام تحولات وتغيرات وفق كل فترة تاريخية ومقتضياتها وظروفها إلى يومنا هذا.

وقد ذكر أبو عمار في السير بعضا لشروط التي يجب أن تتوفر في الشخص الذي يريد الالتحاق بحلقة العزابة مثل أن يكون كيسا أديبا ومشمرا في طلب العلم وألا يكون كثير الدخول إلى الأسواق وأن يغسل بدنه وقلبه (أبي عمار، 1979، صفحة 13)، كما يشترط في العزابي أن يكون حافظا لكتاب الله، كما يجب أن لا يكون تاجرا لأنهم يرون أن التجارة تعلم الغش والربا ويحذرن أن يكون عمله في الزراعة أو غيرها من المهن التي لا تعرف الاختلاط الكثير من العامة، وألا يلتفت لأهل الدنيا ولا يكثر الاجتماع معهم، ولا يوجد إلا في داره أو حديقته أو المسجد (مزهودي، 1996، صفحة 205) وتتكون حلقة العزابة من أعضاء يتم ترتيبهم وفق مهام كل عضو وتتكون من إثني عشر عضوا وقد يزيد العدد لتزايد المهام (مزهودي، 1996، صفحة 207)، حيث يكون على رأس هذه الحلقة شيخ الحلقة (البرادي، صفحة 226) (وهو أكبر المناصب في نظام العزابة)، ثم إمام الصلاة، والمؤذن، وثلاثة أعضاء يقرئون التلاميذ، وأربعة أو خمسة أعضاء يغسلون الموتى، ووكيل للمسجد وقاضي للبلد (مزهودي، 1996، صفحة 207، 208) ومنهم من يضيف أهل الحل والعقد والذين يعينهم شيخ الحلقة (مقري، 2006، صفحة 75)، وقد كان لهؤلاء دور في تثبيت هذا النظام من خلال الالتزام بمهام كل عضو، والحفاظ على أهم مبدأ قامت عليه هذه الحلق وهو الاهتمام بالعلم ونشره والمحافظة على المذهب الإباضي وعلى تعاليمه وقد استطاعت هذه الحلق على حد كبير جدا من ذلك، رغم التحديات التي واجهت المذهب الإباضي عبر مراحل تاريخية عديدة، ووفقت أيضا في تثبيت أواصر التكاثر والتعاون والتضامن الاجتماعي داخل المجتمع الإباضي، وهذا ما نجده نادرا الوجود في أغلب المجتمعات التي عاصرت المذهب الإباضي في مختلف الدول وحتى في يومنا هذا.

كما نجد أن حلق العزابة كان لها دور بارز في الحياة الاجتماعية من خلال تعيين العمال والقضاة في الأقاليم التي يتواجد فيها الإباضية، والعمل وفق نظام الحسبة ومحاربة الغش ومعاينة من يخرج عن القوانين التي تصدرها حلق العزابة، كما كانوا يواسون المحتاج ويقومون مع الضعيف والفقير

ويطمئنون على أحوال إخوانهم من المناطق الأخرى وكل هذا كان لوجه الله لا يتقاضون مقابله أجرا. (مزهودي، 1996، صفحة 215، 219).

الحياة الثقافية للإباضيين (وارجلان وسدراتة وواد ميزاب):

أسهمت حلقات العزابة بشكل واضح في المحافظة على الحياة الثقافية للبرستمييين بعد انقضاء دولتهم، فبمجرد حلولهم بمدينة وارجلان وسدراتة، عرفتا هاتين المدينتين حركة ثقافية نشطة، وقد أفضى بعدهما وانعزالهما عن المدن المغربية الأخرى إلى توفر الأمن والاستقرار، حتى أن سكان المدينتين عرضوا الإمامة على يعقوب بن أفلاح بإقامة دولة جديدة تحل محل الدولة البرستمية (مزهودي، 1996، صفحة 139)، وقد كانت وارجلان تمثل كعبة علماء الإباضية، ومركزا كبيرا لحلقات التدريس (مزهودي، 1996، صفحة 51)، وبالرغم مما عاشته هذه المدينة من فتن وقلاقل أثرت على واقع الحياة الثقافية بها إلا أنها كانت تضم مجموعة من العلماء والوافدين إليها لتحصيل العلم، ومن العلماء الذين كان لهم دور في إثراء الحياة الثقافية بوارجلان الشيخ أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن سلهمون السدراتي (مزهودي، 1996، صفحة 139)، (الدرجيني، صفحة 331)، وكان يلقب بالشيخ الناصح، وكانت قراءته على الأئمة بتاهرت قبل انطفاء تلك المصاييح (الدرجيني، صفحة 331)، حيث كون هذا العالم حلقة علمية في أحد مساجد وارجلان، وكلن يلقي بها دروس الوعد، ومنهم أيضا يعقوب بن أفلاح البرستي الفار من تاهرت، وصالح جتّون بن مريان الذي كان له الفضل الكبير في ازدهار الحياة العلمية في وارجلان نظرا للجو الذي وفره للعلماء حيث كانوا يقيمون عنده وينفق عليهم (مزهودي، 1996، صفحة 241).

إن هذا العرض المقتضب للحركة الثقافية يتبين أن وارجلان حظيت أكثر من غيرها من مواطن الإباضية بهذا الازدهار الثقافي، ولا يعني هذا أن مواطن الإباضية الأخرى قد خلت من النشاط الثقافي، بل إن آثار الحركة الثقافية بلغت السودان (مزهودي، 1996، صفحة 244، 245) وقد أورد الدرجيني العديد ممن ساهموا في الحياة الثقافية والعلمية بوارجلان من خلال خلق العلم التي كانوا يدرسون بها، فأبو العباس محمد بن بكر دور فعال في إثراء الحياة الثقافية... وأبو صالح الجبراني فقد اشتهر بعلمه الغزير وشدة تعبه، وقد أثر هو الآخر في الحركة الثقافية، وكان ينتقل في كل ليلة في جميع مساجد وارجلان، يطوف عليها مسجدا بعد مسجد، ومن هؤلاء العلماء أيضا تيبغورين بن عيسى الملشوطي، والشيخ أبو سامان داود بن أبي يوسف، وأبي إسماعيل أيوب بن إسماعيل وغيرهم.

ويبدو أن الحياة الثقافية بمدينة ورجلان لم تتضح بشكل واضح بسبب الفوضى وعدم الاستقرار وغياب الأمن بها، حتى أن مجلس العزابة وهو حديث العهد بالمدينة عجز كلية عن القيام بدوره كما ينبغي، نتيجة لفتور الحماس الديني وكثرة العناصر الغير الاباضية في المنطقة، فلم يعد ممكناً أن تسري عليها قرارات العزابة (مزهودي، 1996، صفحة 52)

أما مدينة سدراتة فعاشت حياة حضارية لا نظير لها، فالحفريات التي قامت بها قامت بالكشف عن آثار قيمة لمبان كثيرة، ونقوش مزخرفة، وأشكال هندسية، وأوان متنوعة (مزهودي، 1996، صفحة 56)، كما أظهرت هذه الاكتشافات أن سكان مدينة سدراتة كانوا يحيون حياة حضارية منتظمة، تؤكد الرسوم الزخرفية المستوحاة من طبيعة المنطقة، (Clud . page. 11)

مما يدل على اهتمام إباضية سدراتة بالجوانب الحضارية والثقافية، وازداد إقناعاً بهذا الإشعاع الحضاري إذا علمنا أن سدراتة هذه قد أنجبت الفيلسوف الجزائري أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني (500هـ-570هـ) (أعوش، 1988، صفحة 59)

كما لم يقتصر النشاط العلمي والثقافي على مدينتي وارجلان وسدراتة بل شمل كل الضواحي المجاورة لهما كواد ريغ وبسكرة ومدن الزاب، ولما انتقل الإباضية إلى وادي ميزاب نقلوا معالم حضارتهم إلى تلك الربوع من علوم وفنون وآداب، وظلت الحلقات العلمية والدينية باقية إلى يومنا هذا (مزهودي، 1996، صفحة 245)، ويتجلى ذلك في العدد الكبير من المكتبات التي تزخر بها قصور بني ميزاب في غرداية وورقلة والقرارة وبريان وغيرهم من المدن التي استقر بها الإباضيون.

الحياة الثقافية للإباضيين بواد ميزاب:

بعد الفتن الصراعات التي حلت بوارجلان وسدراتة توجه جموع الإباضية إلى واد ميزاب بحثاً عن الأمن والاستقرار، ورغم وعورة المنطقة وعدم صلاحيتها للزراعة إلا أن الإباضية اختاروها ملجأ لهم بعد عمليات التشريد التي تعرضوا لها طول حياتهم، ولعل طبيعتها تلك هي التي جعلتهم يفضلونها على غيرها حتى لا يزاحمهم العرب أو البربر، فيحيون حياة تطبق فيها القوانين والأحكام الإباضية حتى لا يتعرضوا لمثل ما تعرضوا له في ورجلان وسدراتة (مزهودي، 1996، صفحة 59، 60). وبقوا محافظين على ثقافتهم وهويتهم التي تعكسها سلوكياتهم وطريقة عيشهم ونظمهم الخاصة بهم، وقد ازدادت الهجرات نحو واد ميزاب بعدما تمكن أبي عبد الله محمد بن أبي بكر من نشر المذهب الإباضي فانتقلت إليه جموع الإباضية بعد كثرت الفتن في سدراتة وورجلان، واستطاعوا تأسيس عدّة مدن نشروا من خلالها ثقافتهم ومذهبهم الإباضي، كمدينة العطف ومليكة وغرداية والقرارة وبريان وبنورة وبني يسقن، ونرى تجليات الثقافة العربية بالمجتمع الإباضي بواد ميزاب أثر اللغة

العربية الفصحى في المؤسسات الثقافية، لاسيما في المساجد التي جسدت هذه الحقيقة في كتابات الاطفال الصغار، وهذا بفضل رجال العزابة والعلم (أعوش، 1988، صفحة 116)، كما يضيف الأستاذ احمد توفيق المدني واصفا ميزاب، ولقد كون الميزابيون حضارة وعمرانا في هذه المراكز التي كانت من قبل قاعا صفصفا واستمروا عائشين بها، يعضون على النواجد على مذهبيهم الاباضي وسط الاعاصير المحيطة بهم.

المكتبات والمصنفات:

إن الصورة العاكسة لمدى تطور وازدهار أي حضارة يقاس بمدى عدد المؤلفين أو المؤلفات الموجودة داخل تلك الحضارة أو التي نتجت عنها في خضم الحياة الثقافية والفكرية أثناءها، إضافة الى دور التدريس وحلق العلم والمكتبات التي تشكل بوجه خاص مدى بلوغ المدن والحواضر من الحياة الثقافية والعلمية، فبعد مكتبة المعصومة التي كانت تمثل عصارة الفكر الإباضي وذلك في عزّ الدولة الرستمية والتي كانت تعج بمختلف العلوم العقلية والنقلية وحتى علوم النجوم والفلك والغبار والنجامة، ظهرت العديد من المكتبات بعد سقوط الدولة الرستمية والتي أسهمت في بعث جو ملائم لإنعاش الحياة الثقافية والعلمية، فوارجلان وسدراتة كانتا تخران بمكتبات عديدة، ولا يوجد أصدق مما هو موجود الآن في غرداية والقرارة وبريان فعلى سبيل الذكر لا الحصر، مكتبة عمي موسى، ومكتبة الاستقامة، ومكتبة اطفيش ومعهد الحياة بالقرارة وغيرها، وقد أوردنا أسماء هذه المكتبات كاستنتاج لما كان عليه الاباضية في العصر الوسيط وبقي موجودا الى غاية اليوم.

وقد بلغ عدد هذه المكتبات بمنطقة واد مزاب لوحدها حوالي 118 سنة 2009، ما بين مكتبات خاصة وأخرى عامة (يحيى، 2014، صفحة 515)، حيث لا نكاد نجد حيّا يخلو من مكتبة تحتوي رفوفها على مئات الكتب والمخطوطات التي خلفها الإباضيون، وكلها تعكس حجم الاهتمام البالغ بالحركة الثقافية من طرف الإباضيين بفضل حلق العزابة التي حافظت على ذلك النشاط رغم قرون من الزمن وانقراض العديد من المذاهب في خضم ما كان يحدث من صراع مذهبي وتقويض لدول بأكملها بما فيها عقائدها وأفكارها.

بالإضافة إلى ذلك برزت نخبة من المؤلفين الذين أثروا وأنعشوا الحياة الفكرية والعلمية والثقافية بعد سقوط الدولة الرستمية، حيث أن انتقال الإباضية من جديد من إمارة الظهور إلى إمارة الكتمان، جعلهم يهتمون بتدوين وتليف الكتب الفقهية، حفاظا على استمرار مذهبهم وتراثهم الثقافي بصفة عامة (مزهودي، 1996، صفحة 248)، ومن أمثلة ذلك أبو عبد الله بن بكر

الفرسطائي، وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (الدرجيني، صفحة 425)، وأبو عمار عبد الكافي (الدرجيني، صفحة 485)، وأبو الربيع سليمان الوسياني (الدرجيني، صفحة 513) وقد ذكر تادايوش ليفيتسكي مجموعة من العلماء وهم كثر عقب سقوط الدولة الرستمية (ليفيتسكي، صفحة 60...109)، ووجدت مؤلفات ومصنفات اهتمت بالمذهب الإباضي منها، كتاب تبين أفعال العباد، وكتاب السيرة في الدماء وكتاب الأصول، وكتاب الألواح لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر، وكتاب الشيخ أبي خزر في الكلام، وكتاب سير الأئمة واخبارهم لأبي زكريا، وكتاب عمرو بن فتح وله كتاب اخره يعرف ب "اللقط" (مزهودي، 1996، صفحة 249، 250)، وكتاب الجنائز، وكتاب ديوان الأشياخ (حماد، 2013، صفحة 95)، (مزهودي، 1996، صفحة 248).

خاتمة:

من خلال ما تطرقنا إليه يتضح لنا أن حلق التدريس والتعليم كان لها اهتمام واسع من طرف أئمة الدولة الرستمية وأولوها عناية بالغة لدرائتهم بأن أسس تطور الدول وازدهارها وسرّ بقائها وطول عمرها يكمن في العلم وتحصيله، وذلك من خلال:

-إنشاء العديد من المؤسسات التي اهتمت بهذا الجانب كالكتابيب والمدارس والمساجد وحلق العلم ووفرت لذلك كل سبل النجاح ولم يدخر أئمة الرستمين أي جهد من أجل ذلك.

-كثرة حلق العلم والتدريس بحيث لا نكاد نجد حيا أو جماعة أو فرقة إلا ولها حلقة خاصة بها لطلب العلم والنيل منه، مما زاد في إذكاء الحركة العلمية والمذهبية.

-بروز مجموعة من العلماء الذين حملوا على عاتقهم طلب العلم وتدريسه، والمحافظة على أصول المذهب الإباضي وفق ثقافة المجتمع الإباضي.

-كثرة المكتبات ودور العلم والتي بدورها تضم آلاف المصنفات التي عكست مدى الاهتمام الكبير بالحياة العلمية والثقافية من طرف الإباضيين، حتى بعد سقوط دولتهم بالمغرب الأوسط .

- ظهور حلقات المناظرة والمجادلة والتي كانت تفرض على مرتاديهما أن يكونوا أصحاب علم كبير وبالغ وهذا ما وجدوه في تلك الحلق، وبرحيلهم إلى الصحراء لم يتخلّى من فرّ من الإباضية على حلق التدريس والعلم مع إحداث تغييرات فيها، وجعلها تأخذ الطابع الاجتماعي الثقافي أكثر، مع الإبقاء على ما أوجدت من أجله وهو طلب العلم، وصارت حلق العزابة تمثل القانون الذي يضبط المجتمع الإباضي ويسير أموره وشؤونه وذلك في غياب السلطة السياسية المتمثلة في الإمام، وأضحت حلق العزابة القانون الأعلى الذي يحتكم إليه الإباضية في شؤون حياتهم وفق ما ينص

عليه المذهب الإباضي، وقد كان لهذا التغيير في حلق العلم وتطورها إلى العزابة عدّة مبررات ومسببات أبرزها:

-خوف الإباضيين من اندثار مذهبهم والذي كان يمثل لهم العصب الذي يجمعهم ويوحدتهم، بالإضافة إلى غياب قانون ينظم الحياة الاجتماعية، وكذلك إلزامية ووجوب وجود ضوابط دينية توحد المجتمع الإباضي وتكون درعا له من التأثيرات الخارجية التي كان بإمكانها أن تعصف بالمذهب الإباضي في ظل التحديات التي كانت موجودة بالمغرب الإسلامي عبر فتراته التاريخية كولوج العديد من المذاهب والأفكار والفرق الكلامية.

قائمة المصادر والمراجع:

- B. (s.d.). La civilisation urbaine au M'zab. SNED. ALGER. 11. ،Clud
ابن الصغير، ا. (s.d.). أخبار الأئمة الرستميين.
أبي زكريا، ي. (1979). سير الأئمة وأخبارهم 3، 4، 5. الجزائر.
أبي عمار، ع. ا. (1979). السير 3، 4، 5. سلطنة عمان.
البرادي (s.d.). الجواهر المنتقاة 01. لندن.
البكري، أ. (s.d.). المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. 68. القاهرة.
الحريري، ع. م. (1987). الدولة الرستمية بالمغرب الاسلامي، حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والاندلس 03، ،
235. الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع.
الدرجيني، ا. ا. (s.d.). طبقات مشائخ المغرب 01، 02، 07، 205.
الشماعي، ا. ب. (1987). السير 01، ، 68. سلطنة عمان.
بحاز، ا. ب. (1993). الدولة الرستمية، دراسة في الاوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية 266، 277، 279، 288، .
غرداية.
بكير، ب. أ. (1988). واد ميزاب في ظل الحضارة الاسلامية. 56. غرداية.
جودت، ي. ع. (1984). العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. 33. الجزائر.
حامد، م. (2013). الحية الاجتماعية والثقافية خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. 50.
خليفة، ع. م. (1993). الاصول التاريخية للفرقة الاباضية. ط، 03، عمان، الاردن.
دبوز، م. ع. (s.d.). تاريخ المغرب الكبير 02، ، 329.
شاوش، ب. ر. (1966). الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي. ط، 01. تلمسان: المطبعة العلوية مستغانم.
ليفيتسكي، ت. (s.d.). المؤرخون الاباضيون في افريقيا الشمالية. 60.
مزهودي، م. (1996). الاباضية في المغرب الاوسط، من سقوط الدولة الرستمية الى هجرة بني هلال الى بلاد المغرب .
39. غرداية.
مقري، س. (2006). التعليم عند الاباضية من سقوط الدولة الرستمية إلى تأسيس نظام العزابة. 75. قسنطينة.
يحيى، ب. ح. (2014). المكتبات وخزانات المخطوط ببلدة تجنينت بوادي مزاب. 515. غرداية.